بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

* * *

(١) يوسف : ٢ (٢) الفرقان : ٣٣ (٣) فاطر : ٢٨

obeikan.com

obeikan.com

تقديم

نشأ الإمام ابن القيم - مع أستاذه شيخ الإسلام - ابن تيمية فى عصر القلق والاضطراب والفتن والحروب الصليبية . . وكأنما شاءت الأقدار أن يبقى الأمل وضوء الإسلام هاديًا وقويًا ، فى هذه الفترة العصيبة بجهاد هذين الإمامين العظيمين والمخلصين لدين الله تعالى .

ويمكن أن يقال : إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فى هذه الفترة كانا المدافعين على منابع الإسلام الصافية ، والضاربين بسيف رسول الله في هذه الظلمات .

وكان ابن القيم ذكيا ، طلعة ، سريع الحفظ والفهم ، وله بصر بما يقرأ وما يكتب ، وما يسمع . . شأن الناقد البصير ، كما كان دائم المطالعة ، مكبًا على العلم ، لا يكل من البحث ، كما كان واسع الاطلاع ، وتدل على ذلك كتبه الكثيرة ، إذ فيها : علم وفهم عميق ، وجودة فى الترتيب والتقسيم ووضوح الديباجة .

ويعتبره العلماء بحق وارث علوم الإمام ابن تيمية ، وتلميذاً المعيًا له ، حتى قيل فيه :

« لو لم يكن للإمام ابن تيمية من المناقب إلا تلميذه ابن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السائرة ، التى انتفع بها الموافق والمخالف . . لكان غاية فى الدلالة على منزلته » (١) .

---

(١) وأدعو نفسى والشانئين عليهما إلى مراجعة ما خلفا من آثار قبل الحكم عليهما . . فمن جهل شيئًا عاداه ، وكذلك معرفة العصر وقتهما معرفةجيدة .

وإذا ترك ابن تيمية أكثر من خمسمائة مصنف فى خمسمائة مجلد . . فإن ابن القيم ورث كل ذلك ، ووعاه ، وتأثر به ، وحفظه وبلغه للناس ، ومهده للأجيال من بعده ، فضلاً عما كتب هو .

وتراه حجة فى الحديث دراية ورواية ، ومعرفة رجاله وعلله . . إلخ ، كما برع فى الفقه على مذهب الصحابة والتابعين والأئمة من بعدهم . . وسترى بصره في التفسير ، واختيار الأصوب ، وبراعة الإحاطة بالموضوع ، ثم بيانه فى أحسن بيان ، يرفد ذلك ذكاء وحسن بيان ، واختيار حق ، ونفى توهم ، بسوق دليل وحسن تعليل .

كما أطلع على الملل والنحل فسبر غورها ، وفند حججها ، وأبان زيفها وحط من شأنها ، لفسادها .

وشارك الفلاسفة والمناطقة آراءهم ، ثم وجه النقد اللاذع إليها ، بما يحط من شأنها أمام البراهين الإسلامية المستقاة من الشرع والعقل ، ودعا إلى الإسلام الصحيح ، والمحجة الواضحة ليلها كنهارها ، كما تركها لنا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

ولغته العربية من السهل الممتنع ، وبصره بها فى مفرداتها وتراكيبها وقواعدها ما يظهر براعته فيها كما فى بعض اختياراتنا فى القسم الأول . . فتجد له اليد الطولى ، والباع الواسع فى معرفتها ، وتشقيق القول فيها ، واختيار صائبها ، ونقد زيفها ، وكأنما هو لا يحذق غيرها إذا تحدث فيها ، أو قد وقف حياته للعناية بها ، والإحاطة بها . . كما تلاحظ فى القسم الأول من هذا الكتاب .

ولا عجب فى ذلك فهى لسان الوحى المعتبر ، والقرآن المحكم ، والسنة النبوية المطهرة ، والذي يعيش لها وفيها ، ويحكم زمام قواعدها وبلاغتها ، وبيانها ، تجد لكل ذلك أثرًا طيبًا فى قوله ونظمه وشعره . .

وليس بغريب إذن أن يأتى المحدث العظيم ابن حجر العسقلانى . . شارح

البخارى بالنقد البناء لفحل من فحول العربية هو الإمام الزمخشرى فى قاموسه الفريد : « أساس البلاغة » ، فاستدرك عليه ابن حجر استدراكات مفيدة ومصيبة فى كتابه « غراس الأساس » ، فى أدب العلماء ونقدهم لبعضهم . . وقد قمت بتحقيق « الغراس » ونشرته مكتبة وهبة ، ليكون متممًا للأساس . .

وما ذاك إلا لأن القرآن عربى ، وبغير العربية لن نفهم التنزيل حق الفهم عن إيمان وقناعة ، وما يعقل ذلك إلا العالمون .

وحين نشرت أبحاثًا عن ابن القيم اللغوى ، للترقية إلى درجة أستاذ بالأزهر . . ذكر المرحوم العلامة عبد السلام هارون رئيس مجمع اللغة العربية السابق . . أن هذا اكتشاف جديد ، وكان عضو اللجنة معه : د . عبد الله العزازى ، ودكتور قناوى رحمهم الله تعالى ، وأثابهم عن العلم والعلماء خير الجزاء .

والمدلولات اللغوية مبنية - بلا شك - على أصول اللغة - حين نقف مع مبانيها وخصائصها الراسخة رسوخ الجبال ، لأن العربية لا تخضع للتغيير الدلالى والبنيوى كشأن اللغات الأخرى ؛ لأن اللغات الأخرى لهجات قابلة للتطور ، بينما اللغة العربية لا تتبدل ، إذ لها أصول ثابتة ، تثرى بعوامل تنمية ثابتة محكمة [1] ، وإذا كان القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله تعالى فى الصدور والكتاب ، فالعربية مصونة محفوظة .

❊ ❊

ومن ودّ معرفة ثوابت العربية فليطالع معجم « المقاييس » ، للإمام أحمد ابن فارس ، لألفاظ اللغة ، إذ كل حرفين فى الأصل لهما معنى ثابت ، يضيف له الحرف الثالث معنى إضافيًا فى قواعد ثابتة لا تتغير .

---

(١) راجع كتابنا : « عوامل تنمية اللغة العربية » - نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

فى هذا الصدد نذكر عبقرى اللغة العربية : الخليل بن أحمد الفراهيدى ، الذى أسس أول معجم فى العالم للغة العربية ، على هدى مخارج الأصوات فى القرن الثانى الهجرى ، ولاحظ فيه القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، والصوت الواحد أيضًا حسب صفاته التى يتميز بها عن غيره ، وحسب مخرجه .

كما عرف العلامة ابن جنى فى خصائص اللُّغة العربية . . القيمة التعبيرية للصوت الواحد ، والحرف ومخرجه ، والقيمة البلاغية لوضع الحرف فى مكانه اللائق والواجب .

ونذكر براعة العلامة : أحمد فارس الشدياق فى كتابه : (منتهى العجب فى خصائص لغة العرب) . . .

فلا عجب أن يتبع ذلك ابن القيم فى تفسيره ، وتحليله للآيات فى ألفاظها ، ويتعقب اللفظ في استعمالاته ؛ ليبين إعجاز القرآن الكريم ، ويضع المعنى السليم فى العقول السليمة السوية ، بما علمه - عن اقتناع ووضوح - من إشراق العربية ، ومعرفة مناحيها علومًا وأصولاً وفروعًا . . فيصادف تفسيره - لذلك - قلوبًا خالية من الزيغ والأهوا . . فيتمكن المتعلم ، ويبهج العالم .

❊ ❊

وأنفس التفاسير فى رأيه - وكما ترى - ما يوافق تفسير النبى ﷺ ؛ إذ هو الذى لا ينطق عن الهوى ، وكذلك صحابته الكرام . . فهم أدرى بمضمون القرآن ؛ لأنهم حول الرسول ، ولأن اللغة لغتهم . . وكذلك السلف الصالح . . وكما قيل : أهل مكة أدرى بشعابها . .

وما غاب عنه فمرجعه إلى اللُّغة بعدئذ . إذ هى اللسان المعبر للقرآن الكريم . .

❊ ❊

حتى اللغة العربية فى فنونها ومناحيها ، خدمها الأقدمون ، خير خدمة ابتغاء وجه الله تعالى ، فى : أصولها ، وقواميسها ، ونحوها ، وصرفها ، وبلاغتها وبيانها ، وشعرها ونثرها ، وأصول قواعدها ، والمواطن الصحيحة لاستعمالها . . وأسهم فى تقعيد قواعدها ، وتفسير غامضها كل عالم نحرير نفخر به ، قضى حياته مترهبًا فى محرابها ، لأنها وعاء القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وإذا أردنا جيلاً صاعدًا لمستقبل زاهر ، يعيد الأمجاد للأولاد والأحفاد . . فلنحافظ على لغتنا ، فهى شرفنا وسر مجدنا الغابر ، والتليد إذا شئنا أن نحيا كرامًا . . وقد نافست الصين واليابان أمريكا فى كل مجالاتها تقريبًا بلغاتها الموروثة لا المكتسبة .

* *

وفى التفسير بذل ابن تيمية - رضى الله عنه - جهده المضنى ، لبيان الوجه المشرق لكتابنا الخالد المعجز ، فى لغته العبقرية الفتية أبدًا . . وقد حاور فى تفسير كثرة من العلماء سبقوه فى هذا المجال ، وقبل قول بعضهم ، ورد قول غيرهم ، وحاورهم فى أدب العلماء ودعا لهم بالخير .

ولا بد أن نعلم أن التفسير بحر لا ساحل له ، من سبح فيه على بصيرة هُدِى إلى الصراط المستقيم ، ومن عالجه بقلب سليم استبانت له الأمور ، ومن استعصت عليه فوض إلى الله سبحانه وتعالى .

يقول ابن عباس - رضى الله عنه - :

القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون - لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته : فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى .

أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء . أ . هـ .

ويقول العلامة الشيخ يوسف الدجوى ، رحمه الله :

« فى القرآن أسرار ومقاصد لا يمكن أن يأتى عليها البشر . . كيف ولىلقرآن ظهر وبطن ، وحد ومطلع ، وفيه كليات يدخل تحتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ومتشابهات لا يصل إلى كنهها غيره عَزَّ وجَلَّ ؛ مما وقف أمامه العلماء مفوضين أو مؤولين .

وفيه من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجب :

حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر ، وتتفق وكل اكتشاف . .

حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد ، نسب لمفسرى الآيات ، لا لها ، ووجدت هى أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم الممحص ، والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب ، وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

ومن مناقشات ابن القيم للمسائل اللغوية والتحقيقات العلمية . . تحس بأن ابن القيم قرأ القرآن قراءة الفاحص ، وفهم رسالته ، وذكر لطائف الدقائق .

* *

وقد انتفع الكثيرون من آثار ابن القيم ، فى مختلف الفنون والعلوم التى حذقها ، وخاصة الدعاة إلى الله تعالى .

وتراه هنا فى هذه المقتطفات بين : اللغة والتفسير . . خبير وجدير - لم يدع شاردة ولا واردة إلا أشبعها بحثًا وتمحيصًا ، بما يبل غلة الصادى - ويبهر الشادى - على حد قول الشاعر :

إذا قال لم يترك مقـــالاً لقائـــــل بملتقطـــــات لا ترى بينها فضـلاً

كفى وشفى ما فى النفوس ولم يدع لذى إربة فى القول جدا ولا هزلاً

مع أنه تنزه عن الهزل ، وعاش فى ورع العلماء ، ونبل الفضلاء . .

● وعملى فى هذا الكتاب هو جهد المقل فى : ضم المقالات التى كتبتها عن الإمام ابن القيم فى مجلة الأزهر ، ومجلة البعث الإسلامى الهندية ، ومجلة كلية اللغة العربية بالأزهر ، وتخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وتفسير الغامض ، وذكر آراء العلماء فيما كان فيه اختلاف أو وجهات نظر . . واختيار ملاحق تبين وتعلى ماضى علمائنا فى خدمة اللُّغة العربية وتفسير القرآن والسُّنَّة بما يوافق المنقول والمعقول فى مختلف العصور ، وما جد فى العصر الحديث ابتغاء وجه الله تعالى والعلم . .

فما كان من صواب فمن فضل الله سبحانه . . وما كان من نقص وتقصير فمنى ومن الشيطان والغفلة ، وقديمًا قيل :

مـــن ذا الذى ما ســـاء قـــط ومـن له الحســـنى فقـــط

وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . . . . وأستغفر الله مما قدمت وما أخرت

فحبذا لو جمعنا كل آثاره فى مجلدات ، توضع تحت نظر الشادين والعلماء ، والباحثين . .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خيرًا عن الإسلام والمسلمين هو وأستاذه العلامة ابن تيمية وكل العلماء العاملين .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

كندا فى : رمضان سنة ١٤١٦ هـ - يناير سنة ١٩٩٦ م

د . توفيق محمد شاهين

* * *